

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٤ —

البوذية

نساء الربانة والفلسفة البوذية

ذاعت في بلاد الهند قبل البوذية زمن طويل أسطورة دينية مؤداها أن إنقاذ الإنسانية من آلامها سيكون على يد شاب نبيل حسن الخلق والخلق، يولد بين أحضان النعمة ويشب بين أعطاف الترف والسعادة، ثم يتخلى عن المادة ويزهد في الشهوات فيصل إلى المعرفة الكاملة التي بها يتقذ الإنسانية من بين براثن الشر والالم. فلما ظهر بوذا وكان قد نشأ على النحو الملائم لبطل الأسطورة التقدمية آمن الناس بأنه هو المنقذ المنتظر، وكان هو شخصياً يعرف هذه الأسطورة فأمن بأنه بطله المنشود، فأعلن أنه لا شيء أنجح للوصول إلى النجاة من وسيلتين: أولاهما التخلي عن المادة، وثانيتهما المعرفة. ثم بدأ جهاده بتحقيق هاتين

عليها نوعاً ما، لماذا؟ لأن في يده توزيع ميزانية الحكومة على دوائر الوزراء. فالإعانة المالية اليهودية ستكون الدولة اليهودية من الحصول على امتيازات خاصة في الدولة العربية، ومن مراقبة مآلاتها وسياساتها... أي أن الدولة العربية ستكون طوعاً أو كرها المستعمرة الأولى للدولة اليهودية، وسوف لا يمر على ذلك مدة طويلة حتى تدمج الدولتان، ويتألف منهما دولة يهودية كبرى تهدد ماجورها من البلاد العربية...

ورأت الحكومة البريطانية تحقيقاً للتقسيم صراحة لشرق الأردن عن المطالبة بحقوق العرب بأن تعدد ثلاثة أمور: الحاق القسم الباقي من فلسطين به، وتأسيس مملكة عربية (مستقلة) منهما، وإعطاء مليونين من الجنيهات للحكومة لشرق الأردن بدل المنحة التي تدفعها سنوياً لسد عجز ميزانيته...

اقتصادى

(البقية في العدد القادم)

لحرب بالمال، فرددت عبارة «إعانة مالية» مراراً، كأن المال هو كل شيء في الحياة، وكأنه أعز من الأوطان والمقدسات. وقالت: بما أن ذلك القسم من فلسطين الواقع في منطقة الدولة العربية لن يستفيد فيما بعد من قدرة المنطقة اليهودية على دفع الضرائب، بما أن مساحة منطقة الدولة اليهودية ستكون أوسع من مساحة لمنطقة الحالية التي تضم أراضي اليهود ومستعمراتهم (بما لا يقل عن ست ممرات) فينبغي أن تدفع الدولة اليهودية إعانة مالية للدولة العربية» مما لا ريب فيه أن شعب الدولة العربية النوى إنشاؤها سوف لا يقدر على دفع ضرائب تسد الأكلاف الضرورية لمسير أعمال الدولة كما هي حال شرق الأردن الآن، فإن حكومة هذا الشرق تقاضى إعانة سنوية من الحكومة البريطانية. تمكنها من استمرار وجودها. ولتتمكن حكومة (الدولة العربية) من الحياة يريد اللورد بيل أن تدفع الدولة اليهودية للدولة العربية إعانة مالية. أي أن حياة لمملكة العربية تتوقف على ما تجود به عليها الدولة اليهودية... إن في إمكان الدولة اليهودية أن ترفض دفع هذه الإعانة لسادية بعد أن تكون قد نالت ما تبتنى. فمن يضمن دفع هذه الإعانة؟ أمي الحكومة البريطانية؟ لقد رأينا قيمة ضمانات هذه الحكومة ولا سيما تجاه العرب. لا ينبغي إن تبهر هذه الإعانة من وطنون النفس على الاستفادة منها. إن اليهود لن يدفعوها إذا وجدوا مصالحهم تقضى بذلك. وسيجدون ألف عذر ليتصلوا بن دفعها. لقد تعهدت ألمانيا بدفع تعويضات لفرنسا ولنغيرها من الدول ولم يمس على تعهداتها عاتق حتى أخذت في تأجيل الدفع ثم اتصلت منه نهائياً، ولم تستطع فرنسا القوية على إرغامها، فهل في قدور الحكومة العربية الضعيفة إرغام اليهود على دفع هذه الإعانة؟ ولنفرض أن اليهود سيدفعون هذه الإعانة عن طيب خاطر فإن هذه الإعانة ضرب من استثمار اليهود للدولة العربية الفقيرة، ووسيلة إلى تدخل اليهود في سياساتها وفي جميع أمورها. هناك قاعدة اقتصادية سياسية بسيطة تقول بأن الذي في يده ميزانية الدولة في يده مصيرها. فلما كانت خزينة الدولة في العهد السابق في يد الملك، كانت السلطة المطلقة في يدهم أيضاً، ولما انتقل حق فرض الضرائب من الملك إلى البرلمانات، انتقلت السيادة معها. فأصبحت البرلمانات مصدر السلطات. وترى في هذه الأيام، في البلاد الديمقراطية، أن نفوذ وزير المالية آخذ في الازدياد حتى أنه أصبح يتدخل في دوائر زملائه ويشرف

والقسم الثاني المدنيون أو الأحرار ، ولكن ليس معنى هذا أن طائفة الدينين من البوذيين كانت مكلفة بتأدية طقوس دينية خاصة . كلا ، فبوذا لم يكلف أتباعه بأى نوع من أنواع العبادة ، وإنما كل ما كان يمتاز به الديني على المدني من البوذيين هو أن الأول كان أكثر تسكاً وأقل تعلقاً بالمادة من الثاني ، وهو لهذا كان نموذجاً له في حياته العملية ، لأنه أسرع منه خطى في السير نحو الخلاص من شوائب المادة المندسة

غير أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أن جميع أفراد الطائفة الدينية البوذية كانوا بعيدين عن جميع مظاهر الحياة ، لأن الواقع يخالف ذلك ، إذ كان أكثرهم مع تسكهم يتصلون بالناس في المعاملة وأحوال المعيشة ، لكن في شئ من الاعتدال ، بل من الحذر والاحتياط . أما أقلهم فكانوا رهبانة يعيشون في عزلة عن الناس لا ينشغلون إلا بالتأمل في أسرار الكون والنظر في عظمة الوجود . كانت الملك محرمًا على البوذيين الدينين كافة حتى الذين يتعاملون منهم مع الناس ، وكان الواجب على كل فرد منهم أن يتسول طعامه يوماً فيوماً وألاً يدخر شيئاً مهماً قل إلى غده

أحسن المدنيون من البوذيين في داخل أنفسهم بشئ من القلق المضى ، فأيقنوا بأنهم لم يصلوا بعد إلى الهدوء النفساني المنشود الذي به وحده تتحقق السعادة ، وبحوثاً عن سبب ذلك فعلوا أنه التعلق بالمادة والتخلف عن الطريق القويم الذي سار فيه إخوانهم الدينين ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يطبقوا على أنفسهم تلك المتاهج الضيقة ولا أن يذعنوا لها تيك القواعد التي كانت قد بدأت تقسو وتشدد في جميع أساليب الحياة ، فحظرت على البوذي أكل اللحوم والأسماك ، وقيدته بأنواع محددة من الأطعمة والأشربة والنياب ، ورسمت له الخطة التي يجب عليه أن يسلكها ، فاكفى أولئك الأحرار من البوذيين بالإيمان النظري ببوذا واتباع الأخلاق البوذية السامية من : صدق وأمانة وحلم وحياء ووداعة وإيثار وتضحية وغير ذلك من جلائل الصفات ، وجعلوا بيوتهم مآدي لآخوانهم الدينين ؛ أما مشكلة عدم وصولهم إلى السعادة النفسية ، فقد وجدوا لها حلاً طريفاً ، وهو أن من آمن ببوذا وتخلق بأخلاقه وآوى رجال دينه وأكرم مشواهم وعاش عيشة مدنية ، فإن روحه بعد موته تنقسم بوذا يادنيا ، لتصل عن طريقه إلى الخلاص من المادة الذي يضمن لها السعادة والنجاة

الوسيلتين في نفسه ، فتخلي عن الذائد تخلياً عملياً ، ثم لم يلبث أن أعلن أنه وصل إلى نهاية المعرفة كما أسلفنا

نشأت عن المبدأ الأول من هذين المبدأين الديانة البوذية التي هي وليدة الزهد والتقصيف قبل كل شئ ، وعن المبدأ الثاني وهو المعرفة نشأت الفلسفة البوذية . وسنحاول هنا أن نلم في شئ من الإنجاز بالديانة البوذية وأركانها وتطوراتها ثم بالفلسفة البوذية وعناصرها الأولية

الربانة البوذية

لم يشأ بوذا في أول أمره أن يقحم في مذهبه أى شئ له علاقة بما بعد الطبيعة ، بل لم يتحدث عن الإله على أصح الأقوال ، وإن كان بعض مؤرخي الفلسفة قد رووا عنه أنه تعرض للألوهية بالإنكار وصرح بأن ليس هناك إله على النحو الذي يصورونه به ، وإنما هناك روح عام متغلغل في كل شئ . ويرى البعض الآخر أن بين أقدم النصوص البوذية نصاً ينكر الألوهية أصرح الإنكار ، إذ هو يتساءل قائلاً : « ما هو الآله ؟ هل هو نفس العناصر ؟ إذا كان ذلك فلا يكون في الأمر جديد سوى وضع اسم مكان آخر وإذا كان غيرها ، ولها هي هذه الخواص التي نشاهدها ، فقد ثبت خلوه هو من بعض الخواص الثابتة للعناصر ، وهو نقص فيه . وإذا كان له كل خواصها فلم يكن في حاجة إليها ، لا تخاذاً وسيلة لايجاد العالم . وإذا فنحن أمام خلاء من الألوهية يؤيده النطق »

وأنا شخصياً أستبعد هذا الاتحاد على ذلك التمسك النوراني والمصلح الأخلاقي العظيم ، ولعل هذا النص قد دس عليه في العصر الذي تلا عصره

وكان أهم ما يرى إليه هو تخليص الإنسانية من آلامها المتوالية التي يجدها التناسخ بقدر ما يعده من وحدات العودة إلى الحياة التي هي في كل مرة مليئة بالألم والشقاء . وقد اعتبر بوذا — كما أسلفنا — الجهل والشهوة الأساسين الجوهرين لهذا الألم ، وأكد أنه لا خلاص للإنسانية إلا بالمعرفة والتخلي عن المادة ، وهما وسيلتان متلازمتان أبدأ ، إذ لا توجد المعرفة الصحيحة حيث يحل التهلك على المادة ، ولا تستقر الزهادة حيث يوجد الجهل ولا ريب أن هذا الخط من شأن الحياة وما فيها من متع ولذائد قد قسم البوذيين إلى قسمين : القسم الأول الدينين ،

محدثات البوذية :

الاهمال والبوذية

أنت الديانة البوذية بمحدثات لم يكن للبراهمة بها عهد من نبل مثل نبع الوحي من داخل النفس بدل أن كان البراهمة يستدونه إلى الآلهة . ويعلق العلماء الأوربيون على هذا المبدأ بما يفيد عظمة بوذا وسموه على جميع سكان الهند وثقته بنفسه إلى الحد الذي لم يؤلف عند الشرقيين الدين وصلت ضآلتهم أمام أنفسهم إلى حد إسناد كل شيء إلى السماء ، تلك الضآلة التي كادت تحو متجاتهم العقلية الخاصة من صحائف مجهودات الفكر البشري . وسنرد على هذه الحملة الجائرة حين نعرض للوحي والالهام عند الكلام على الاشرافية إن شاء الله .

ومن الميزات التي اختصت بها البوذية إعلانها أن مهمتها نجاة العالم وإيقاظه من الألم والشقاء ، وفي هذا الغيرة ما لم يحظر للبراهمة الأتانيين على بال ، وبهذه النقطة يقترب بوذا من المسيح في نظر العلماء الذين يصدقون حادثة الصلب ويتخذون منها برهاناً على غيرية المسيح وتضحية نفسه في سبيل إنقاذ البشر من الخطايا والآثام .

ومن هذه المحدثات البوذية إلغاء نظام الطبقات الذي مر بك مفصلاً في البراهمية « الأرثوذكسية » ثم أقره عهد التطور حتى جاء بوذا فخرمه على جميع معتني ديانته ، وإن كان الأستاذ « دينيس سورا » يري أن بوذا لم يبلغ نظام الطبقات ، وإنما كانت المقاطعة التي نشر فيها ديانته خالية قبل وجوده من نظام الطبقات لأن من المسلم به أن البراهمة لم ينشروا ديانته في جميع بقاع الهند ، ولكن هذا الرأي غير صحيح ، لأن بعض النصوص البوذية دوت لنا أن بوذا كان كثيراً ما يتلاقى مع بعض البراهمة يقيمون في البراري والقفار فلا يكثر بهم ولا يلتفت إليهم .

ومهما يكن من الأمر ، فقد محا بوذا كل تلك الفروق التي كانت البراهمية قد وضعتها بين طبقات الشعب بزعمها أن الكهنة خلقوا من رأس براهما ، والجند من ذراعيه ومنكبيه ، وأرباب الحرف من ساقيه ، والأرقاء من قدميه ، فلما جاء هذا المصلح العظيم أعلن أن جميع بني البشر سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالزهادة والمعرفة .

بدأ بوذا منذ فجر اليوم الأول لتبشيره بديانته يعلم تلاميذه الفضائل التي رأى أنها وسائل الخلاص والنجاة ، ولكنه شاء أن يعلمهم هذه الفضائل عن طريق إنبائهم بأضدادها ، فأعلن أن الرذائل الواجبة التجنب عشر ، وهي : الشهوة والملفت ، والمعنى والجهل ، والادعاء والرأي ، والشك والاهمال ، والخلاعة والوقاحة .

كانت هذه الرذائل في أول الأمر تذكر في تعاليم بوذا على النحو المتقدم ، دون ترتيب ولا تخصيص ، أما بعد ذلك فقد قسمت إلى فصائل اختصت كل ناحية من الانسان بفصيلة معينة منها بعد تطورها وتحديداتها في مجموعتها . وهاك هذا التقسيم : إن الرذائل التي تهوى بالانسان عشر ، وإن نواحيه التي تأتي هذه الرذائل ثلاث اختصت كل ناحية منها بعدد من تلك الرذائل ، فرذائل الجسم ثلاث ، وهي : التعذيب والسرقة والزنى ؛ ورذائل النطق أربع ، وهي الكذب والتميمة والسباب والطيش ؛ ورذائل التفكير ثلاث ، وهي : الطمع والخبث والتزيف .

لم تكن البوذية تسوى بين هذه الرذائل ، بل جعلتها متفاوتة في مراتب الاثم كما هي متفاوتة في سرعة الانحفاء عن مرتكبتها ، ولكنها صرحت بأن الندم هو من أهم وسائل الخلاص منها

على أن الفضائل المضادة لهذه الرذائل التقدمية ليست في مجموعها من النوع العالي في رأى البوذية ، وإنما هي فضائل سلبية لأن من تعفف عن السرقة مثلاً لم يزد على أنه هجر رذيلة من شأنه أن يهجرها ، وهو لهذا لا يسمو إلى درجة من يستعمل فضيلة الزهادة أو التضحية ، أو ما شاكل ذلك .

وعندهم أن أهم تلك الفضائل الايجابية ما يأتي :

(أ) حب الحقيقة . (ب) الرأفة (ج) الطهر

(د) الاحسان . (هـ) مداومة التقوى

(و) احتمال كل المؤلات والمفرزات . وغير ذلك مما يصادفه

القارى من أمثلة عالية في كل صفحة من صفحات السيرة البوذية الفاتنة .

محمد غموب

« بنيع »